هذا هو الإسلام

(٦)

الفلسفة السياسية

د. أحمد داود أوغلو

ترجمة

د. إبراهيم البيومى غانم

تقديم

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٦)

* الفلسفة السياسية

الطبعـــة الأولى
١٤٢٧ هـ ـ يناير ٢٠٠٦ م

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسي، القاهرة
تليفون وفاكس، ٤٥٠١٢٣٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٢٩
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٦)

الفلسفة السياسية

د. أحمد داود أوغلو

ترجمة

د. إبراهيم البيومى غانم

تقديم

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يقلم: الدكتور محمد عمارة

فارق بين «العالمية»، التى تعنى التفاعل الحضارى الطوعى بين حضارات متميزة تتفاعل ـ متبادلة المصالح والخبرات والمعارف والعلوم ـ من موقع الاستقلال الذى يحافظ على الخصوصيات، عندما تلتقى ـ هذه «العالمية» ـ عند القواسم المشتركة بين الحضارات الإنسانية المتميزة والمتفاعلة..

فارق بين هذه «العالمية» وبين هذا الذى يسمونه «العولمة» أو «الكوكبة» أو «الكونتة»، والذى هو ـ بشهادة الواقع الذى يراه الجميع: اجتياح اقتصادى وثقافى، وهيمنة سياسية وعسكرية، من الطرف الأقوى فى النظام الدولى، على فضاءات وخصوصيات حضارات وثقافات الضعفاء والمستضعفين.

وحتى إذا قبلنا أن ثورة وسائل الاتصال الحديثة، و«الانفجار المعلوماتى» قد جعل من عالمنا «قرية» واحدة صغيرة، فإن الواقع الصارخ الذى تعيشه هذه «القرية» يقول بأعلى صوته، بل ويرسم بالدم والأشلاء والمحاصرات والمجاعات، إن بيوت هذه «القرية» وسكانها ليسوا سواء!.. ففيهم القاتل وفيهم المقتول.. وفيهم الظالم وفيهم المظلوم.. وفيهم مغتصب الأوطان وفيهم اللاجئون المشردون.. وفيهم من يجتاح السيادة الوطنية ويخترق الأمن القومى والحضارى وفيهم من يُحْرَمُ من أبسط حقوق تقرير المصير!

وهذا الذى يتحدثون عنه باسم «الاعتماد المتبادل» بين أمم وشعوب هذه «العولمة»، ليس أكثر من أكذوبة تحتاج إلى «رسام كاريكاتير»!..

فالاعتماد المتبادل مستحيل إذا لم يكن هناك تكافؤ فى القوى والمصالح بين أطرافه ومكوناته.. وإلا فأين هو هذا «الاعتماد المتبادل» بين من يتدجج بأكثر وأخطر وأوفر وأفتك أسلحة الدمار الشامل وبين من يُنْزَع سلاحُه؟!..

وأين هو هذا «الاعتماد المتبادل» بين قوى الهيمنة الاقتصادية وبين من تُفْرَض عليهم «روشتة» البنك والصندوق الدوليين؟!

وأين هو هذا «الاعتماد المتبادل» بين من يفرضون ثقافتهم وقيمهم، بل وعقائدهم الدينية، وبين من تمطرهم ـ دون وقاية ـ وسائل البث المباشر ومؤسسات التبشير بهذه الثقافات والقيم والعقائد التى تجتاح قيمهم الحضارية وتشكك فى عقائدهم الدينية وتمسخ السمات القومية لأممهم وشعوبهم؟!

إن تصاعد آثار هذه «العولمة» ـ التى يتحدثون عنها ـ لا يثمر «اعتمادا متبادلا»، ولا «العالمية»، التى هى مطمح الشعوب، وأمل الحضارات.. وإنما يثمر تزايد الخلل فى علاقات الأقوياء بالمستضعفين الساعين إلى النهوض والانعتاق من مأزق التخلف والاستضعاف، الأمر الذى يفرض علينا الاهتمام بالخصوصيات الحضارية، والتمايزات الثقافية، والسمات القومية، ومعايير السيادة الوطنية، فى الوقت ذاته الذى نمارس فيه التفاعل الحضارى ـ الصحى والطوعى ـ مع مختلف الحضارات والثقافات..

وإذا كان الإدراك العلمى الموضوعى لخصوصية الحضارة الإسلامية، فى ضوء مقارنتها بخصوصية الحضارة الغربية ـ التى تسعى لتكريس هيمنتها على عالم الإسلام ـ لا يمكن أن يتأتى ـ على النحو العلمى والموضوعى ـ إلا إذا امتلك الإنسان ناصية الفقه والوعى بسمات فلسفة النموذج الحضارى الإسلامى، وسمات فلسفة النموذج الحضارى الغربى، مع ملكة النقد المقارن بينهما، فإن صاحب هذا الكتاب ـ الدكتور أحمد داود أوغلو ـ هو نموذج للمفكر المؤهل ليقدم لنا رؤية علمية موضوعية فى هذا الميدان..

فقي صفحات هذا الكتاب ـ على صغر حجمه ـ يتجلى عمق المؤلف في إدراك السمات والقسمات الفارقة ـ وبخاصة «المعرفية ـ القيمية»، وأيضًا الجامعة ـ بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، بوجه عام.. وفي الفلسفة والسياسة ـ أو الفلسفة السياسية ـ على وجه الخصوص.. الأمر الذي يجعل من هذا الكتاب جهدًا متميزًا وممتازًا في فقه التفاعل الحضاري، يفتح أبواب ونوافذ العقل المسلم على التراث الغربي ـ القديم والحديث والمعاصر ـ لكن من موقع الراشد المدرك لخصوصية هويته الإسلامية، وتميز حضارته عن غيرها من الحضارات..

وإذا كان مناخ الحديث عن «العولمة» ـ بمعنى «التغريب» حينا.. و«الأمركة».. في أغلب الأحايين ـ يستدعي تحصين العقل المسلم، لا بالانغلاق فهو ضار، فضلاً عن أنه غير ممكن.. ولا «بالتبعية والتقليد» للآخر، ففيهما قتل للمناعة الحضارية للأمة.. وإنما بالوعي بخصائص «الذات» وبخصائص «الآخر»، واتخاذ الموقف النقدي، الذي يتغيا الحفاظ على الذات ـ مع تجديدها ـ دون أن نبخس الآخرين ما لديهم من إيجابيات، وما يجمعنا بهم من نقاط اتفاق..

إذا كان هذا المناخ هو السائد في واقعنا الفكري هذه الأيام، فإن ترجمة هذا الكتاب ـ والتي نهض بها باحث متميز هو الدكتور إبراهيم البيومي غانم ـ وتقديمه إلى الباحثين والقراء إنما يأتي في أنسب الأوقات..

* فسيجد القارئ في هذا الكتاب كنزا من الرؤى المعرفية الإسلامية، التي تتوالى لتقيم بناء التمايز الفلسفي والفكري والمعرفي بين الإسلام والفلسفة الوضعية الغربية.. فتسامي الوجود الإلهي الواحد المنزه عن الإنسان المستخلف ـ الذي سخرت له الطبيعة ـ يمثل جوهر النظرة الوجودية الإسلامية للعالم.. بينما تمثل النظرة الغربية النقيض.. فالحلول الإلهي في الإنسان قد جعل التسامي الوجودي ـ عندما خصص وجود الإله ـ للإنسان، وليس للإله.. وهي نظرة فلسفية جامعة لمدارس وفلسفات الفكر الغربي، التي تعددت مناهجها، ولكن في هذا الإطار العام والجامع..

* وسيجد القارئ أن اختلاف مدارس الفكر الإسلامي إنما هو اختلاف تنوع في المناهج، محكوم بثوابت النظرة الإسلامية لله والكون والوجود.. فهو اختلاف تنوع في إطار فلسفة إسلامية ميزت كل مدارس التفلسف والفقه في حضارة الإسلام..

* وسيجد القارئ أن استقلال العقل البشري عند المعتزلة، لا يمكن - كما يزعم البعض - أن تؤسس عليه «علمانية» تجعل الإنسان مستقلا ومكتفيا بذاته عن الشريعة الإلهية؛ لأن هذا الاستقلال قد قال به المعتزلة وهم يبحثون في وجوب الإيمان بالله، وليس - كما في «العلمانية» - لاستقلال الإنسان عن التدبير الإلهي، وكفايته بنفسه عن شريعة الله.

* والتمييز بين سيادة الشريعة - التي هي وضع إلهي ثابت ومطلق ومحيط - وبين سلطة الاجتهاد الإنساني - النسبي والظني - والمحكوم بسيادة الشريعة الإلهية، هو معْلَم من معالم تميز الفلسفة الإسلامية وامتيازها..

* وفارق بين نظرية «الحلول» - حلول الله في الإنسان - وبين نظرية «الاستخلاف» - استخلاف الله للإنسان - فالأولى تنفي التوحيد، وتنفي التنزيه، وتنقل التسامي إلى الإنسان.. بينما تحافظ الثانية على التوحيد وعلى التنزيه، مع التكريم للإنسان.. والأولى تضفي الإطلاق على المعرفة الإنسانية، والعقل الإنساني - عندما ترى أنه «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده» - بينما تحتفظ الثانية بالإطلاق والشمول والإحاطة للوحي الإلهي والعلم الإلهي، وتقف بالاجتهاد الإنساني والعقل البشري والمعرفة الإنسانية عند النسبية، فتسد الباب على السلطة الكهنوتية المطلقة لرجال الدين، والسلطة المطلقة للدولة، أو الطبقة الرأسمالية، أو الطبقة الاشتراكية في الحزب «والبيروقراطية» الحزبية..

* ثم.. كيف أدت نظرية «كوبرنيكس» (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) عن مركزية الشمس للكون، إلى نظرية معرفية تجعل الطبيعة هي المركز في تصور الإنسان للعالم، فبدأت بذلك التحول - في الفكر الغربي - ثورة، لا على المستوى الكوني فحسب، وإنما على المستويات الوجودية والمعرفية، والقيمية والاجتماعية أيضًا.. وكان ذلك هو التأسيس، «لعلمنة» المعرفة والحياة في الفكر الغربي.. بينما ظل الفكر الإسلامي على عقيدة «وحدة الله»، على المستوى الوجودي، التي تؤدي إلى عقيدة «وحدة الحقيقة»، و«وحدة الحياة»، على نحو من التراتب يحول دون علمنة الحياة والمعرفة والقيم في الثقافة الإسلامية..

ففي مقابل «مركزية الطبيعة» و«الإنسان الطبيعي» ـ في الفكر الغربي ـ نجد ـ في الفكر الإسلامي ـ «التمركز حول الله»، الواحد، المتسامي الوجود، والمنزه عن مماثلة المحدثات.. ونجد «استخلاف الإنسان»، الذي نفخ الله فيه من روحه، وسخر له قوى الطبيعة، لإعمار الأرض..

فالاستخلاف، والأمانة التي حملها الإنسان هما أصل القيم المعيارية الإسلامية.. والعهد الإلهي للإنسان الخليفة ـ أي الشريعة ـ هو أصل العقد الاجتماعي السياسي.. الأمر الذي ينفي ـ في السياسة الإسلامية ـ الفصل بين «المقدس والعلماني» أو بين «الديني والدنيوي» أو بين «المادي والأخلاقي»، أو بين «الحياة الروحية والحياة المادية»، ولذلك فالدولة في السياسة الإسلامية «دولة مثالية» غايتها تحقيق «العدالة»، وليست «دولة طبيعية».. هي دولة مثالية، تحققت في التاريخ ـ على العهدين النبوي والراشدي ـ ولا تزال «مثالا» يستحث الأمة على تحقيقه في الحاضر والمستقبل.. بل لقد غدت مثاليتها هذه المبرر لشرعية الدولة والسياسة في الفكر الإسلامي.. وهي ليست مثالية بالمعنى الأفلاطوني، الذي ظلت فيه خيالا استعصى على التحقق في التاريخ.

* وبينما جعل الغرب ـ بعد سيادة المكيافيلية ـ «القوة» معياراً للسياسة، ففصلها عن القيم، اتخذ الإسلام «الاقتراب من الصلاح والابتعاد عن الفساد» معيارا للسياسة الشرعية، فجعل القيم معياراً للسياسة، عندما ربط القوة السياسية بالتسامي الوجودي الإلهي، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

فالإسلام يضع العدالة هدفا للسياسة، بدلا من القوة التي هي هدف السياسة الغربية.. ومن هنا اتسعت في الفقه الإسلامي مساحة المبحث الرامي إلى إدانة استخدام واستغلال السلطة ـ السياسية أو الاقتصادية ـ انطلاقاً من الموقف القرآني الذي أدان فرعون (لإساءته استخدام السلطة السياسية) وأدان قارون (لإساءته استخدام السلطة الاقتصادية)، بينما امتدح ملكة سبأ (التي أحسنت التعامل مع السلطة السياسية) وأثنى على الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة..

* وفي الاقتصاد: تقوم العقلية الاقتصادية الغربية على أساس **«أن ما يتم إنتاجه يجب أن يستهلك»**، الأمر الذي أثمر ثقافة استهلاكية، يؤدي تعميمها عالميا إلى القضاء

على التعددية في أنماط العيش وفي الثقافة وفي القانون. . بينما تقوم العقلية الاقتصادية الإسلامية على أساس مبدأ «**أن كل ما يحتاج إليه الناس ينبغي أن ينتج**»، وذلك انطلاقا من الاقتصاد المعياري، لا الاقتصاد الوضعي.

* وعلى حين يقوم مفهوم «المواطنة» ـ في النموذج الغربي ـ على معيار الأصل العرقي، يقوم هذا المفهوم ـ في النموذج الإسلامي ـ على الهوية الاجتماعية السياسية، التي هي امتداد للإيمان بوحدة مسئولية الإنسان، ووحدة الحياة، انطلاقا من عقيدة التوحيد. . فالأمة ـ إسلاميا ـ بناء على هذا المعيار مجتمع مفتوح أمام أي إنسان يقبل المسئولية، التي هي أساس تحديد الهوية، وعملية العلاقات الاجتماعية السياسية، بصرف النظر عن أصله أو جنسه أو لونه.

فوحدة الأمة ـ في النموذج الإسلامي ـ تعتمد على الاتجاه الوجودي، المؤمن بواجب الوجود، والمتمثل في منظومة القيم، بأكثر من اعتمادها على العوامل اللغوية (فالأمة قد تتكون من تعددية لغوية وقومية) أو العوامل الجغرافية (فلقد تتوزع الأمة بين أقاليم وولايات متعددة) أو العوامل الثقافية (فقد تتعدد في الأمة العادات والأعراف). . أو العوامل البيولوجية. إن وحدتها ترتبط ارتباطا مباشرا بمفهومها للألوهية، وبالتصور الإسلامي للعالم، ذلك الذي ينبع من عقيدة التوحيد.

* * *

إن أساس تمايز الفلسفة السياسية الإسلامية عن نظيرتها الغربية راجع إلى تمايز رؤية كل من الفلسفتين وكل من النسقين الفكريين للعالم، حيث تنطلق الرؤية الإسلامية من التوحيد والتنزيه، عبر التدرج الوجودي (بالاستخلاف) إلى الأسس القيمية للتصورات والثقافات السياسية. . بينما تعتمد الرؤية الغربية على تقارب المستويات الوجودية (وليس تدرجها) من خلال «تخصيص الألوهية»، ووجود عناصر مستمدة من ديانات التعدد «والحلول» (وليس التوحيد والتنزيه) الأمر الذي جعل الرؤية الغربية «علمانية»، تعتمد «مبحث القيم العقلاني»، وتضفي النسبية والذاتية حتى على الدين، في مقابل إيمانية الرؤية الإسلامية، الملتزمة بمنظومة القيم الدينية الثابتة، والنابع ثباتها من الإطلاق الديني.

تلك إشارات لبعض ما يقدمه هذا الكتاب من سمات للتمايز الحضارى بين الإسلام والغرب الحضارى، تجعل من هذا الكتاب الصغير عملاً كبيراً فى المعركة ضد «المركزية الحضارية الغربية»، التى يسعى الغرب وعملاؤه الحضاريون لفرضها على العالم، باسم «العولمة» هذه الأيام.

فهو كتاب بالغ الأهمية فى موضوعه.. وأيضًا من حيث التوقيت الذى نقدمه فيه إلى الباحثين والقراء..

والله نسأل أن ينفع به.. وأن يجزى خيراً المؤلف.. والمترجم.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعظم مسئول وأكرم مجيب.

د. محمد عمارة

* * *

عن الكتاب.. والمؤلف.. والمترجم

العنوان الأصلي لهذه الدراسة التي كتبها مؤلفها بالإنجليزية هو :
The Impacts Of Alternative Weltanschawings On Political Theories: A Comparison Of Tawhid And Ontologicol Proximity

والفكرة الجوهرية التي يقدمها الدكتور أحمد أوغلو في هذه الدراسة هي أن اختلاف الرؤى الفلسفية للعالم ينعكس بالضرورة على النظريات السياسية الخاصة بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : على مستوى نظام الدولة الواحدة ، وأيضا على مستوى النظام الدولي بصفه عامة .

وتنقسم الدراسة إلى قسمين أساسيين : ناقش المؤلف في القسم الأول عدداً من التساؤلات الأساسية حول العلاقة بين «الوجود»و«المعرفة»و«القيم» ، و«السياسة»وذلك في الفكر الغربي ، مقارنة بالفكر الإسلامي المؤسس على«الوحي» . أما القسم الثاني فقد قام فيه بتحليل أثر اختلاف الرؤى الفلسفية للعالم (كما أوضحها في القسم الأول) في النظريات السياسية المتعلقة بالقضايا التالية :

١ـ قضية تسويغ النظام السياسي الاجتماعي على أساس كوني ـ وجودي .

٢ـ قضية شرعية النظام السياسي .

٣ـ قضية التعددية السياسية ونظريات القوة .

٤ـ قضية مركزية المؤسسة السياسية وتركيز القوة مقارنة بتعدد المؤسسات الاجتماعية في النظام السياسي .

٥ـ قضية «الثنائية» والتعددية في تكوين هيكل النظام الدولي .

وسوف نترك الدراسة الآن بدون مقدمات قد تؤثر على القارئ الكريم وهو يطالعها . ونود فقط أن نذكر نبذة موجزة عن مؤلفها ، وعن مترجمها :

أما المؤلف فهو الدكتور أحمد داود أوغلو، وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة البوسفور بتركيا ومتخصص في الدراسات السياسية الإسلامية المقارنة بالفكر السياسي الغربي. ويجيد أربع لغات قراءة وكتابة وهي: التركية، والألمانية، والإنجليزية، والعربية.

وقد عمل لعدة سنوات بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

وهو يتولى - حاليا - رئاسة إحدى المؤسسات الوقفية العاملة في مجال التعليم والثقافة في تركيا، كما يشغل منصب المستشار لرئيس وزراء تركيا رجب طيب أردوغان.. وممثل تركيا لدى الاتحاد الأوروبي.. وذلك فضلا عن قيامه بالإشراف على «مجلة الديوان» التركية؛ وهي دورية علمية متخصصة في شئون الفكر والثقافة والفنون. وله كثير من المؤلفات والدراسات العلمية، منها الكتاب الذي نشرته مكتبة الشروق الدولية - عام ٢٠٠٦م - بعنوان «العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية»، وقد صدر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية في سنة ١٩٩٤م بعنوان:
- Civilizational Transformation And The Muslim World.

وهو يناقش في هذا الكتاب النظريات القائلة بصدام الحضارات، وصراع الثقافات، ويرى أن ما يحدث في العالم هو «صدام المصالح» بين القوى الكبرى المهيمنة على الساحة الدولية.

أما مترجم هذه الدراسة فهو الدكتور إبراهيم البيومي غانم، الخبير بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة. وهو حاصل على دكتوراه في العلوم السياسية من كلية الاقتصاد - جامعة القاهرة - في موضوع: «الأوقاف والسياسة في مصر الحديثة»، وله عدد من البحوث والدراسات المنشورة، منها كتاب بعنوان: «الفكر السياسي للإمام حسن البنا»، وكتاب «الحركة الإسلامية في الجزائر وأزمة الديمقراطية»، وكتاب «الأوقاف والسياسة في مصر الحديثة». هذا إلى جانب العديد من الدراسات والأبحاث الميدانية المتخصصة والمتميزة.. وعشرات المقالات.. والكثير من الإسهامات في الندوات العلمية في مصر وخارجها.

***

الفلسفة السياسية

• فى هذا الكتاب كنز من الرؤى المعرفية، التى تؤكد تميز حضارتنا الإسلامية عن الحضارة الغربية:

- إن تنزيه الذات الإلهية عندنا يقابله حلول الإله فى الإنسان، لدى مذاهب الفلسفة الغربية..

- والعقلانية الإسلامية: عقلانية مؤمنة، تبلورت فى إطار البحث عن الإيمان بالله.. وليست العقلانية الغربية التى تجعل الإنسان مستقلا عن الشريعة وعن الإيمان بالله..

- وبينما ظل الفكر الإسلامى على ولائه « لوحدانية الله »... و« وحدة الحقيقة »... و« وحدة الحياة »... و« استخلاف الإنسان »... تأسست العلمانية الغربية على « مركزية الطبيعة »، المستقلة عن الإله!.. وعلى « التمركز حول الإنسان »، الذى صاح: « لقد مات الله »!!..

- ومعيارية السياسة - فى الدولة الإسلامية - هى قيم العدل.. بينما معيارها هو « القوة » فى الفلسفة السياسية الغربية..

• ومؤلف هذا الكتاب فيلسوف مسلم، يحتل مكانا متميزا فى الفكر الإسلامى التركى.. وفى صناعة القرار بالإدارة الحالية للدولة التركية..

كما أن مترجمه هو باحث مرموق وواعد فى الساحة الفكرية الإسلامية..

• إنه كتاب صغير الحجم.. يحمل رسالة كبرى ضد العولمة والاجتياح الغربى لثقافة الإسلام.

د. محمد عمارة